مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

بادئ ذي بدء يجب التنويه بأن الرجوع إلى الماضي ليس الغرض منه إعادة التاريخ إلى الحاضر وتطبيق ما كان مطبقاً في ذلك الحين باجتراره واسترجاعه إلى هذا العصر، خاصة في الأمور العلمية والمهنية مثل الطب.

فالتطور الهائل الذي حدث في القرنين الماضيين في مجال الطب يمنعنا من استعمال طرق تشخيص ابن سينا، أو محاولات علاج أبي بكر الرازي، أو أدوات تشريح ابن النفيس، أو قواعد تنظيم علي بن رضوان، فلكل عصر علمه ولكل زمان أدواته. فالعلم ينطلق من الواقع ويبنى على التراكم، أي تراكم المعرفة والخبرات. فالمعرفة العلمية بناء عمودي في حالة نشاط دائم، والنظرية العلمية الجديدة والخبرة الجديدة قد تلغي النظرية العلمية السابقة لها أو تكملها أو توسع نطاقها، وبذلك يصبح السابق المنسوخ جزءًا من التاريخ والحاضر بداية لمعرفة مستقبلية.

ولكن لأسباب أربعة رجعنا للماضي للكتابة عن تنظيم الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية:

أولها: ما كان ذاتيًا لعاطفة الانتماء، ليعلم الأحفاد ما فعله الأجداد، فلا تهضم حقوق هؤلاء الأجداد، ولا يستطيع جاحد أن ينكرها عليهم، وأيضا ليكون دافعًا للأبناء للوصول إلى ما وصل إليه الأجداد.

فكثيرا ما نقرأ كتاباً في علم من العلوم طبع في الغرب أو الشرق بأحد لغات هذا الشرق أو ذاك الغرب؛ نجد أنه يبدأ بتاريخ هذا العلم، وغالبا ما يبدأ بعصر الإغريق والرومان ثم يقفز فجأة إلى عصر النهضة الأوروبية فالعصر الحديث، متناسيا عمداً أو غافلاً جهلاً عصر الحضارة العربية الإسلامية وما قدمته للحضارة والمعرفة الإنسانية، إلا من أنصفوا وهم قليل.

وما يحز في النفس أن الكثير من الكتّاب العرب يقعون في نفس الخطأ، فإن كان ذلك جهلاً بغير تعمد فتلك مصيبة وإن كان عمداً فالمصيبة أعظم، نجد الكاتب من هؤلاء المنحدر من أولئك الأجداد العظام إذا أراد أن يكتب عن موضوع معين؛ يبدأ بالكتابة عن جذور هذا الموضوع في الماضي، فيبدأ بالحضارة الإغريقية أو الرومانية، أو قد يبدأ بعصر النهضة وفي أغلب الأحيان يهمل الكتابة عن هذه الجذور في الحضارة العربية الإسلامية لأنه يهمل البحث عن هذه الجذور في هذه العصور إما استصعاباً وكسلاً أو جحوداً وإنكاراً.

نضرب مثلا للقارئ العزيز لنقرب ما نود قوله: منذ مدة ليست بالبعيدة طالعنا كتاباً عن الملفات الطبية وأهميتها في المستشفيات، وكما هي العادة يعطينا الكاتب نبذة تاريخية عن تطور الملفات الطبية والتدوين الطبي، فيكتب بإسهاب عن إدخال التدوين الطبي والملفات الطبية في مستشفيات الغرب في أوروبا وأمريكا، ولأنه عربي لا يريد أن يتهم بالعقوق للأجداد فادّعى بأنه كانت للعرب والمسلمين بعض التدوينات الطبية على العظام والجلود. هكذا! لقد استسهل الكاتب الكتابة عن تاريخ الملفات الطبية عند الغرب لسهولة الوصول إلى هذه

المعلومات من أي كتاب غربي يتناول هذا الموضوع، بينما لم يصب الكاتب الحقيقة عن تاريخ الملفات الطبية عند العرب؛ لأنه استصعب البحث، فلم يبحث بجدية، وهو لو أنّه فعل هذا لتوصل بدون صعوبة كبيرة بأن التدوين الطبي فيما يسمى بالملفات الطبية على ورق أبيض إن لم يكن اختراعا عربيا؛ فهو كان إلزاميا على جميع أطباء الحضارة العربية الإسلامية، كما سيتبين لنا خلال صفحات كتابنا هذا.

هذا مجرد مثال، والأمثلة للأسف كثيرة لمن يريد أن يحصيها، ليس في مجال الطب فقط، بل في جميع العلوم لكثير من الكتاب.

أما موضوعية ثاني الأسباب التي دعتنا للكتابة عن تنظيم الطب عند العرب فينطلق من أن التطور في أي مجال من المجالات مرتبط بمدى التخطيط والتنظيم له، فلا تطور بدون تخطيط، ولا تقدم بدون تنظيم، على أن تكون هذه النظم نابعة من البيئة المحيطة، معبرة عنها وعن مدى تطورها الحضاري. وللأسف فإن الكثير من الدول النامية في عصرنا الحالي تستورد - ضمن ما تستورده - ما أبدعه الغرب من نظم إدارية وغيرها، وتحاول تطبيقها بحذافيرها، ناسية أو متناسية أن هذه النظم نشأت وتطورت في بيئة أخرى ومجتمع مختلف، متأثرة بعوامل كثيرة حضارية وثقافية واجتماعية واقتصادية، تختلف عن العوامل المسيطرة في البيئة المستوردة إليها، وبهذا تكون هذه النظم معبرة عن المجتمع المصدر لها وليس عن المجتمع المستورد لها؛ مما يؤدي إلى فشل التطبيق.

لذا أحببنا عبر هذا الكتاب أن نلقي معاً نظرة على كيفية تطوير العرب لنظامهم الطبي ليأتي متوافقاً مع مجتمعهم الإسلامي معبراً عنه. فنجحوا في تطويره وبالتالي في تطوير الطب أيما نجاح.

وثالث الأسباب التي دعتنا للكتابة في هذا الموضوع: أنني طبيب مارست الطب وعملت في الإدارة الطبية كرئيس للأطباء لسنوات عديدة، فأحببت أن أطّلع كحفيد على ما أنجزه الأجداد لتنظيم طبهم في عصور ازدهار هذا الطب، ولعلمنا أن لا تطور ولا تقدم بدون تنظيم جيد، وبما أن الطب قد وصل إلى درجة عالية من الرقي في عصور الحضارة العربية الإسلامية؛ مما يلزم وجود تنظيم طبي متطور وراء هذا الرقي.

وقد بحثنا في الكتب التي تناولت تاريخ الطب، البعض منها قديم والبعض الآخر وضع حديثا؛ فوجدنا نقصاً حاداً إن لم يكن معدوماً وجود كتاب يتناول موضوع الإدارة الطبية أو التنظيم في تلك العصور على صفة الجمع أو التفصيل. ولكن خلال قراءاتنا في هذه الكتب شعرنا يقينا بأنّ وراء هذا التقدم الكبير في الطب في الفترة التي سادت فيها الحضارة العربية الإسلامية العالم تنظيماً محكماً.

وسبب آخر نضيفه إلى الأسباب الثلاثة الأخرى، علماً أن هذا السبب كان الحافز الأساسي لنا لمواصلة الكتابة في هذا الكتاب؛ حيث وجدنا من نقاشاتنا مع زملائنا الأطباء العرب والمسلمين أن الأغلبية منهم تعاني من نقص حاد (إن لم يكن من جهل مطبق) في المعرفة عن إسهامات علماء الحضارة العربية الإسلامية

في تطور الطب على وجه العموم؛ فكيف عن تنظيم الطب؟ وهذا هو الذي دعانا إلى أن نبدأ الكتاب بنبذة عن تطور الطب عبر العصور، وخاصة عن مساهمة الأجداد، لكي يُكوّن القارئ فكرة عن تطور الطب ومساهمة الأمم المختلفة في هذا التطور قبل أن نعرّفه بالتنظيم الطبي لدى العرب.

لهذه الأسباب مجتمعة كتبنا كتابنا هذا للقراء على وجه العموم، وللزملاء الأطباء وطالبي علم الطب على وجه الخصوص، الذين يجب ألا نلومهم على قلة معرفتهم بإسهامات الأجداد، فهذه المعرفة لم يتلقاها الذين درسوا الطب في جامعات الغرب، فليس من شيم الغرب الاعتراف بإسهامات الغير، كذلك لم يتلقاها الذين درسوا الطب في جامعات بلادهم. وإذا تفهمنا عدم حرص الغرب على تدريس إسهامات علماء حضارتنا، فإننا لا نتفهم الحرص على عدم تدريس تاريخ الطب وإسهامات الأجداد في الجامعات العربية.

كما نود أن ننوه بأن هذا الكتاب ليس عملاً لمؤرخ متخصص أو لباحث أكاديمي؛ بل هو فقط إسهام طبيب يود البر بأجداده ليبعد صفة العقوق والجحود عن ذاته، ورسالة تعريف بتراث هؤلاء الأجداد، كتبت بعقل يحرص على تبيان الحقيقة وبقلب يحرص على تبيان عاطفة المحبة لهم، على أمل أن تصل هذه الرسالة للأحفاد فتدفعهم على خطى الأجداد.

المؤلف